ولدها

للأستاذ كمال رستم

أيها الأصدقاء ! لا تهزأوا بي إذا قلت لكم إنني كنت بسبيل أن أرتكب يوما جريمة مروعة ! .. إنكم لا تستطيعون أن تتصوروا أن مثلي يقدم على قتل ذبابة ؛ ولكن الحقيقة أنني كنت سأقتل .. لا رجلا رشيدا .. بل طفلا غريرا لا تعدو سنه الرابعة !

دعوني أقص عليكم قصتي فهي لا تخلو من عبرة وعظة !

كنت في السادسة والعشرين حينما غزا الحب قلبي ! ولم أكن محدود الطالع لأنني لم أحب عذراء بل تعلقت بسيدة فارقت زوجها بعد أن استولدها طفلا ! وكانت في التاسعة عشرة حينما تعرفت بها ! ولم يكن في سماتها شيء ما ينبئ عن أنها سيدة . كانت تبدو عذراء أكثر من العذارى .. في جمالها ورشاقتها .. وروحها العذبة ! واندفعت إليها اندفاعا جنونيا .. اندفاع العاشق المسلوب الإرادة والعقل ! ومع أنها أنبأتني منذ كان لقاؤنا الأول أنها أم لطفل ؛ إلا أنني لم أجد في قولها خطرا يهدد حبنا على الإطلاق !

جرى كل شيء في مجراه الطبيعي .. وشعرت أنني في حبها أسعد من على بسيطة الأرض حظا وجدا ! كنا نلتقي في الأماكن العامة والنزهات الخلوية .. وكان حديثنا هو حديث الحب الشائق ، ولم يحدث أن فكرت في طفلها .. فإن حدث هذا كان تفكيرا سطحيا لا يبلغ أغوار النفس .. وأعماق الشعور ! ومع هذا كانت العقبات تعترض سبيل سعادتنا ! كنت أعلم أن أسرتي المحافظة سيهولها العمل الذي كنت بسبيل أن أقدم عليه ؛ فقد كنا أجمعنا أمرنا على الزواج .. وكنت أعلم أن هناك غير ظروف الأسرة ظروفا أخرى قاسية تجعلني أروي النظر في هذه الخطوة الجريئة .. خطوة زواجي من سيدة !

إن الناس سيديرون الحديث عن زواجي ويذهبون في تأويله كل مذهب .. ولن يجد الأمر من ... مسئول ... يلقى على مثل هذا السؤال :

لم تزوجت من ثيب ... والعذارى

كثيرات ؟

ومع أن حيساتى الخاصة حرم مقدس ليس لفضولى أو متطفل أن يدس أنفه فيه إلا أن الناس درجوا منذ قديم الزمان على أن يدسوا أنوفهم فى حياة الناس رضى هؤلاء أم كرهوا !

كانت هذه الحقائق القاسية تكدر هنائى وتعكر صفوى حينما أخلو إلى نفسى .. ولكننى كنت أنسى كل شئ .. كل شئ حينما أكون بين ذراعيها المبلتين !

وعن لى أن أشرك بعض الصحاب .. بعض الأصدقاء فى مشكلتى .. وأن ألتمس لديهم صواب الرأى فأنكروا على زواجى من ثيب قائلين :

— أيكون أول « بختك » سيدة ؟

كنت لا أعى ما يعنون .. ماذا لو بنيت بثيب أو بفتاة ما دمت أحبها ؟

ترددت طويلا قبل الإقدام على الزواج من حبيبتى ، وشرعت أقابل بين زواجى منها وانفصالى عنها . فلما رأيت أن مجرد خاطرة الفراق تملأ نفسى هلعا وقلبى رعبا لم أجد معدى من التسليم بنصيبى المقدور وقلت لنفسى إنى مشغوف بهـا مصبوب عليها ومحال أن أفترق عنها دون أن يؤثر ذلك فى نفسيتى وأعصابى !

وشئت أن أحقق من موقفها بالقيـاس إلى ولدها فيما لو تزوجنا فما كدت لى أنها راضت نفسها على العيش بعيدا عنه وأن جدته كفيلة به وقالت والابتسامة الآمرة على شفتيها :

— لن تشعر أبدا بأن لى طفلا وتزوجتها !

وبقى زواجى منها سرا مغلقا حتى بالنسبة إلى أقرب الناس إلينا .. ولم أكن رتبت أمرى لاستقبال حياتى الجديدة فقبلت أن أدعها بعض الوقت عند أسرتها .. ريثما أوفق إلى مسكن خاص بنا !

والآن تدبروا أيها الأصدقاء موقفى وانظروا كيف أن خطأ يسيرا قد يكون له كل الأثر فى تشكيل حياة الإنسان وتغيير مجراها .. لقد رأيت ثمة طفلا غيورا تدفعه الغيرة العمياء إلى إتيان أعمال شيطانية وتبعث فى نفسى نحوه شعور العداء والكراهة والمقت .. هذا الطفل الغرير فى الرابعة من عمره لم يكن يدعنا لحظة واحدة نخلو إلى نفسينا .. وننهل من حبنا

فما كانت تحتوينا حجرة إلا رأينا البا يصطفق فى قوة وعنف ثم تحتـل الطفل واقفا أمامنا بسحنته البغيضة يشرع عينيه إلينا فى حقد جنونى ! لم يكن طفلا غريرا بل ماردا صغيرا ! ويظل هذا المارد الرجيم ماثلا أمامنا ليس فيه سوى عينين تقدحان

بالشرر وأراني دون وعي ولا تفكير أراحي عن أمه ذراعي .. وقد زكت في نفسي ضده ثورة عارمة .. بينما تصعد إليه بصرها وتقول له في غضب يشيع فيه الحنان المستور

— ألم أقل لك لا تدخل إلى هنا ؟

ثم تأخذ في ملاطفته إلى أن يزايل الغرفة ولكنها بمرور الأيام وترادف الحوادث أدركت بغريزة الأنثى التي لا تخطئ أنني بدأت أصحو من هدأة الحب الحالم .. وأنني شرعت أعير الأشياء .. أدركت أن الطفل الذي لم يكن له أثر في حياتي صار له الآن كل الأثر !

وفي يوم كانت فيه مشاعري مهتاجة .. وأعصابي ثائرة لم أستطع أن أحتفظ بسمات المجاملة التي ألفت أن أكسو بها وجهي كلما عليت الطفل . وقد وقع أن رآني أحتوى أمه بين ذراعي فاتجه إلينا وفي عينيه تصميم وعزم ثم ارتمى بكيانه الصغير على أمه وشرع يجذبها من شعرها ليحررها من بين ذراعي .. وراحت هي ترسل ضحكاتها الناعمة السعيدة ؛ وكأنما أدرك الطفل قصور وسيلته وعجزها فانهال على ظهرها بقبضتيه الصغيرتين ضربا ولكما .. وفي غير وعي ولا إدراك أهويت بجمع يدي على رأسه في ضربة مغيظة حنقة . كانت قد أثارت الكراهية الثائرة في أعماقي في ثورة مجنونة ضد هذا الطفل الدال .. الطفل اللعين !

تراخت قبضة الطفل .. وراح يحدق في في ذهول وضعف .. ووقف منا غير بعيد لا ينتحب ولا يبكي . . وإنما ينظر إلى وفي عينيه ذلك البريق الإجرامي .. هذا الطفل الذي كان لا يعدو الرابعة .. والذي كان الكلام يتعثر على شفتيه ، عددته غريمي ، في حبها وحنانها وتفكيرها !

وأدرت بصري عنه .. وصعدته إليها .. فاجتليت في عينيها نظرة قاسية .. سرعان ما تحولت إلى نظرة عاتبة !

وكان في هذه اللحظة أن عرفت أن حبي لها مهدد بوجود الطفل .. ولم أستطع أن أداري عواطفي فعلا وجهي وجوم .. وفترت قبلاتي وخلت من الشغف والانفعال ورأيتها تضمني إلى صدرها في قوة وانساب إلى صوتها الناعم وهي تقول :

— أيها الطفل الكبير . . أتغار من صغيري وأنت تعرف أن لك حبي كله . . لك وحدك ؟

ولأول مرة أيقنت كذبها !

وتطلعت إلى ولدها ونهرته ولكنه ظل واقفا لا يريم فقالت في غضب :

— أخرج —

فمضى الطفل في خطوته المتعثرة صوب الباب وقد استدار إلينا بجسده الأعلى وفي

عينيه نظرات التحدى والمقت !

وتشكل تفكيرى منذ كان هذا الحادث وشرعت أرنو إلى المستقبل بغير العين التى اعتدت أن أرنو بها فى الماضى .. لم يعد هو المستقبل السعيد الهانئ الذى طالما رأيته فى أحلامى ! وإنما هو مستقبل ينذر بالفشل ويومئ بخيبة الرجاء !

وكان أقسى ما يحز فى نفسى أن أعلم أن طفلا صغيرا هو سبب شقوتى وتعاستى وأننى لا حيلة لى فى مقاومته ومناهضته لأنه يتصل بأمه بأمتن المواطف وأرقها وأبقاها على الدهر ! وهذا الطفل هو شاغلى الأول .. كما غدوت أنا شاغله الأول كذلك ! وبات وكده أن يعكر الصفو الذى يكون بينى وبين أمه . وكنت أعجب لدهاء الطفل ومكره المبكرين فما أن يرانى أخلو إلى أمه حتى يطالبها بمطالب لا تكاد تنتهى :

— أمى .. أريد أن آكل ..

— أمى .. أريد أن أخلع الحذاء ..

— أمى .. أريد قرشا ..

— أمى .. أريد أن أنام ..

ولم يكن يرغب فى هذه المطالب ، إذا أحضرت له أمه الطعام عزف عنه واجتواه ! وإذا خلعت له الحذاء عاد فسألها أن تعيد وضعه فى قدميه .. وإذا نقدته قرشا لنزايل الغرفة وقف فى مكانه لا يريم ! وإذا حاولت أن تهدهده لينام ظلت عيناه يقظتين كأنه ذئب صغير !

كنا نجلس هى والطفل وأنا .. ثلاثة نفوس مضطربة ثائرة ! هى تأخذها اللهفة على ولدها وتحقد على ! والطفل يغار منى ويحقد على ! بينما كنت أنفس على الطفل حب أمه له فحقدت عليهما معا !

وبدأت تعشش فى رأسى الأفكار السود ! بدا لى أن شعورى بالضجر لأننى تزوجت من ثيب لم يكن أمرا ذا بال بالقياس إلى ما قاسيته من هذا الطفل الذى أنجبته من زوجها الأول !

زوجها الأول .. لم لا يضم هذا الرجل إليه ابنه بعد أن تزوجت أمه ؟ أيها الأصدقاء تدبروا هذه الحقيقة المؤلمة وانظروا كيف أن بعض الرجال لا يفكرون بالمستقبل ! ؟ يتزوجون وينسلون ثم يطلقون ! ثم تكون هذه النتيجة الوخيمة .. أطفال هجرهم آباؤهم ، أو نزحت عنهم أمهاتهم ، فتتعقد نفوسهم الصغيرة ويلقى بهم إلى قلوب غير رحيمة .. وأيد غير أمينة .. وقد يحرمون من الحنان ذلك النبع الصافى ! وهل أملك إلا أن أعترف بأننى كأحد الذين قدر عليهم أن يدفع إليهم بطفل من هذا القبيل ، لم أكن أشعر له فى أعمق نفسى سوى شعور المقت !

وأقسم لكم غير حانث أنني حاولت جاهداً أن أجرد من نفسي هذا الشعور البغيض .. ولكن ذهبت محاولتي كلها سدداً وقبض الريح !

* * *

هجرت هذا البيت اللعين حالما عثرت على مسكن لنا ... وتنفست الصعداء ... وبدأت أرسم في خيالي صورة زاهية للمستقبل الهانيء السعيد .. هذا هو العش الجميل الذي كانت صورته ترمض في خيالي .. ها هو ذا يصبح حقيقة واقعة .. فلا طفل صغير يعكر هناءنا ولا أي شيء ...

ودرجت الأيام ولم أر الطفل ... فتبددت طائفة من هواجسي وأوهامي ... ولكنني من فرط هلعي من الطفل ... تمكنت في سلي من أمه .. كان قد وقر في ذهني أنها ستغير من طباعها وتبدل من سلوكها متى حلت مني فتطالبني بأن أضم إليها ابنها ؟ وبعد أن يتعقد ما بيني وبينها .. كيف يمكن إلا أن أخضع لإرادتها وأنصاع إلى أمرها ؟

وراحت في أعقاب ذلك تحاول جاهدة أن تكشف لي عن مفاتنها .. وأن تؤكد لي صدق عواطفها ... إلا أن هذا زادني حرصاً على حرص ... وأبداً لم أفكر في أن أغير سلوكي معها . فظللت دائماً الحريص على ألا أنجب منها أبداً ! وبقيت هكذا وقتاً غير قصير موزع النفس مشترك الذهن ... تتنازعني عوامل الثقة بها والريبة فيها . وغدا ما بيني وبينها أعصاب حبيب ! فأينا فقد سيطرته على أعصابه كشف عما استتر من مشاعره ؟ ولكنها كانت حديدية الإرادة فولاذية الأعصاب .. ولم أكن دونها صلابة وعزماً . فاستمرت الحرب الخفية بيني وبينها .. وعلى شفتي كل منا للآخر ابتسامة كبيرة !

وأحضروا الطفل بضع مرات إلى منزلي ، وكانوا يتركونه إلى أن يأتي المساء فيعيدونه إلى جدته .. كان هو الطفل النيوز الشرير الذي يلتمس السبيل إلى التحرش بي !

ووقر في ذهني أن والد الطفل لا جرم مجرم ! إنه كان مزارعاً . الانتقام شرعته .. والفأس أداة هذا الانتقام ... فالذي يحمل هذه البذرة لا تنحدر إلى ابنه وتترعرع ! والولد كما يقولون سر أبيه ! أي عدل أيها الأصدقاء في أن أتحمل دونه هذا العبء الكبير ! لماذا يتزوج الرجل وينسل كالحيوان .. ثم يترك ولده مضيعاً مهيض الجناح للترياء ... لئن كان والده برماً بابنه فصدور الناس به أشد ضيقاً وبرماً !

ورأيتني بعد هذا تنمو بنفسي رغبة طائشة ... رغبة مجنونة في أن أضرب هذا الطفل وأعذبه وأشقيه ! .. الطفل الذي

يا كل من بيتي .. ويثار مني ويحقد علي !.. الطفل الذي تتربص بي أمه الدوائر كيما تكرهني على الإنفاق عليه ! كرهته كراهة مرة .. !

عددته سارقا !. مجرما !. وكنت أشقى الشقاء الكبير عندما أراه يركض في بيتي على رغم إرادتي كما يركض الأطفال ، ويلهو ويلعب كما يلهون ويلعبون !

حدث أيها الأصدقاء ذات يوم .. هذا الذي أنا بسبيل أن أقوله لكم ! بعثت به إلينا جدته مصابا بالتهاب رئوي . وتركت لأمه أن تسهر على برئه وعلاجه . خيل إلي بادئ الأمر أنني جردت نفسي من نوازع الشر ، وأنني نسيت كراهيتي لطفل برئ لا يعي ولا يعقل ! . فذهبت به إلى الطبيب وأحضرت له الدواء وسهرت أمه على حقنه بالمصل الشافي ! ..

ستة أيام أيها الأصدقاء لم يغمض لي فيها جفن ، حتى أشرفت على الهوس والجنون. وهالني في ظل مشاعري الجديدة أن أرى الطفل الذي كان بسبيل أن يموت فيخلو لي الجو مع أمه وتصفو الحياة ؛ تشاء له الأقدار المصرفة أن يبرأ من مرضه على يدي .. وأن يمد به العمر ليكون الخطر الماثل دائماً لسعادتي وهنائي ! . مسح الله مابه . وزايله المرض ...

وارتدت إليه العافية الفارية ليطالعني بسحنته البغيضة . وابتسامته الخبيثة من جديد !

وجاءتني أمه لتقول لي بعد أن غدا سليما معافى :

— سيبقى هنا تحت ملاحظتي وإلا انتكس !

واحتدم الغضب في صدري لأنني كنت أنتظر يوم رحيله في صبر أرعن فصحت بها:

— لن يبقى غير هذه الليلة . أتعرفين ؟

وشاع الغضب في وجهها وهي تقول

— بل يبقى. وإلا ذهبت معه إلى أمي !

— اذهبي معه إلى الجحيم !

وزايلت المنزل كأشقى ما أكون إنسانا ! وانطلقت إلى الطريق تحتضنا أفكاري ! كانت في الجو نذر عاصفة مقبلة من بعيد ! ولكنني ظللت ذاهلا بأفكاري عن العاصفة والوجود والخلق جميعا ! تحقق لي أنني جانبت الصواب حينما لم أقدر عاطفة الأمومة . كنت في غمرة عاطفتي سادرا في أوهام الحب وسابحاً في خيالاته فلم أدرك هذه الحقيقة القريبة !

وبعد أن مضيت على وجهي طويلا في الطرقات دون قصد ولا غاية .. أبت إلى المنزل لأن السماء أرسلت رعودها وسيولها. ودلفت من فوري إلى غرفة النوم . وأضأت النور . ورأيتها مستغرقة في النوم والطفل بين ذراعيها تتحدى به الموت أن ينتزعه منها .

وراحت الخواطر تتراكب فى ذهنى .. وفجأة برزت من بينها خاطرة فذة..! خاطرة مجنونة!.. إن الطفل ما زال فى دور النقاهة ..! فلو فتحت الآن نافذة الغرفة على مصراعيها، ونحيت الملابس والأغطية عن صدره المريض، فى هذا البرد القارس والمطر الهاطل لارتد إليه المرض عنيفا قتالا !

أدرت هذه الخاطرة فى ذهنى طويلا وأنا أنضو عنى ثيابى المخضلة بماء المطر . وما كدت أفرغ من خلعهـا وارتداء منامتى ومعطف المنزل حتى استمليت منهما نظرة خاطفـة. فرأيتهما ما زالا مستغرقين فى النوم !..

مضيت فى صمت وهدوء إلى النافذة وفتحتها على مصراعيها . أحسست بتيـار الهواء يندفع إلى الغرفة باردا قارسا مميتا !

ووقفت برهة التقط أنفاسى وأنتفض من البرد . ثم مضيت فى خطوات وانيـة . فى خطوات مخنوقة إلى الفراش . وفى خفـة ولطف نحيت الثياب والأغطية عن جسده ، وفى لحظة كان صدره المتقـد المريض يتلقى النفحات الأولى للبرد القاتل !

ومرت لحظات رهيبة راح بعدها الطفل يسعل ، فاذا الزرقة تعلوه ، وإذا أنفاسه تتلاحق ..

كل شيء كان يسير وفق الفكرة الشيطانية التى كانت تعشش فى رأسى ! كل شيء .. وينتهى الأمر !

أيها الأصدقاء لا ترمونى بالوحشيـة والقساوة . فقـد رأيت كم هو رقيق ذلك الحاجز الذى يفصل أشرف الناس وأكرمهم عنصراً عن الجريمة .. لذلك لم أنجز العمل الإجرامى الذى شرعت فيه !

استيقظ ضميرى فجأة واستهولت أن أكون قاتلا أثيما . فاتجهت من فورى صوب النافذة فأغلقتها ، وإلى الطفل فأحكمت تغطيته بالثياب والأغطية ! تم هـذا كله فى لحظات مرت كأنها الأبد ! ولما لم تكن بى رغبة فى النوم ولا قدرة عليه فقد دلفت إلى غرفة مكتبى وظللت هناك مسهدا أرقا أقلب وجوه الرأى وفى قلبى كآبة كبيرة !

وعندما طالعتنى آخر الأمر تباشير الصباح كنت قد أجمعت رأيى على فكرة واحدة هى أن أفترق عن الطفل وأمه قبل أن يتمزق ذلك الستار الرقيق الذى يفصلنى كما يفصل أى واحد منكم عن الجريمة

كمال رستم